بسم الله الرحمن الرحيم

شـــرح

ريـــاض الصالحيـــن

للإمام النووي رحمه الله (ت ٦٧٦) .

باب التفكر

٢٤ / ٦ / ١٤٣٤هـ

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الإنترنت – مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

٩- باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تَعَالَى
وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس
وتهذيبها وحملها عَلَى الاستقامة

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سبأ :٤٦] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ الآيات[آل عمران : ١٩٠-١٩١] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ [الغاشية :١٧-٢١] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا** ﴾ الآية[القتال : ١٠] . والآيات في الباب كثيرة .

تعريف التفكر : هو أن الإنسان يعمل فكره في الأمر حتى يصل فيه إلى نتيجة ، وقد أمر الله به .

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون (إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ) أي : إنما آمركم بواحدة، وهي (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) أي : تقوموا قياما خالصًا لله، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضا: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضا، (ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) أي : ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك؛ ولهذا قال (أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) ، هذا معنى ما ذكره مجاهد، ومحمد بن كعب، والسُّدِّيّ، وقتادة، وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية. (تفسير ابن كثير) .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ .

(**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع .

وقد أمرنا الله بالنظر والتفكر في السماوات والأرض الدالة على توحيده وعظمته وجلاله في آيات كثيرة .

فقال تعالى (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) .

وقال تعالى (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) ، وقال تعالى (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ) ، وقال تعالى (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

- وهما من أعظم المخلوقات ، وهما من أدلة البعث ، حيث أن من قدر على خلق الأعظم فهو على غيره من باب أحرى .

قال تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) .

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

وقال تعالى (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا) .

(**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة (لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) .

وهذا البرهان ذكره الله تعالى في عدة مواضع :

قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) .

(**لَآياتٍ**) أي : لعلامات ودلالات وبراهين .

- قال القاسمي : عظيمة كثيرة ، فالتنكير للتفخيم كَمّاً وكيفاً .

(**لِأُولِي الْأَلْبَابِ**) أي : العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون .

قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

- وسبب تكثير الأدلة أنّ عقول الناس متفاوتة .

قال ابن القيم : الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : النظر في مفعولاته ، **والثاني** : التفكر في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة .

فالنوع الأول كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ...)

وقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) وهو كثير في القرآن .

والثاني كقوله (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) وقوله (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) وقوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) .

(**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**) أي : لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ، بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم .

قال القرطبي : ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلوا ابن آدم منها في غالب أمره ، فكأنها تحصُر زَمانه .

ومن هذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنها (كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه) .

(**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) أي : يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته .

(**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**) أي : ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

(**سُبْحَانَكَ**) تنزيهاً لك يا رب أن تخلق شيئاً باطلاً .

قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ).

وقال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

وقال تعالى (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) .

(**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**) أي : يا من خَلَق الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنزه عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار

- التفكر هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته .

قال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾ .

(**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَت**) فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل .

(**وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ**) أي : وإلى السماء البديعة المحكمة ، كيف رفع الله بناءها وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم .

(**وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ**) أي : جعلت منصوبة ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

(**وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**) أي : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم ، الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه .

(**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر**) أي : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم .

– في هذه الآيات حث على التفكر والتدبر .

أولاً : تعريف التفكر .

التفكر هو : تكرار تأمل القلب في الشيء مرّات ومرات ، حتى يتعرف العبد على خباياه وأسراره قدر طاقته . (تفسير القرطبي)

وقال ابن القيم : الفكرة هي تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

ثانياً : وقد أمر الله بالتفكر في آياته في مواضع كثيرة .

الآيات السابقة التي ذكرها المصنف رحمه الله .

وقال تعالى (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ) .

وذم المتغافلين المعرضين عن التفكر :

قال تعالى (قال الله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) .

قال ابن القيم : إذا غذي القلب بالتذكر ، وسقيَ بالتفكر ، ونُقي من الدغل ، رأى العجائب وألهم الحكمة .

وقال رحمه الله : معرفة الله سبحانه نوعان : الأول : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي .
والثاني : معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والإنس به والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم .
ولهذه المعرفة بابان واسعان :
الباب الأول : التفكر والتأمل في آيات القرآن كلها ، والفهم الخاص عن الله ورسوله .
والباب الثاني : التفكر في آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط .
وقال رحمه الله : والتذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان ، والعارف لا يزال يعود بتفكره على التذكرة ، وبتذكره على تفكره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم .

ثالثاً : أقوال في التفكر .

سئلت أم ذر عن عبادة أبي ذر فقالت : التفكر والاعتبار .
وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .
وقال : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته فكراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو .
وقال الفضيل : الفكرة مرآةُ تريك حسناتِك وسيئاتِك .
وقال ابنُ بَطَّال : إن الإنسان إذا كَمُل إيمانه ، وكَثُر تفكُّره ، كان الغالِبُ علَيْه الإشفاقَ والخَوْف.
وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئٍ قط إلا علِم ، وما علِم امرؤ قط إلا عمِل .
وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله حسن ، والفكرةُ في نِعم الله أفضل العبادة .
وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه قط .
وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ .
بينما أبو شريح يمشي يوماً إذ جلس ، ثم بكى بكاء شديداً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي .
وقال الشافعي : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكرة .
قال ابن القيم معلقاً : وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلبُ أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح ، وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه العمل المجرد .
وقال ابن الجوزي : همة المؤمن متعلقةٌ بالآخرة ، فكل ما في الدنيا يحرّكه إلى ذكر الآخرة ، وكل من شغله شيء فهمته شغله .
ألا ترى أنه لو دخل أرباب الصنائع إلى دار معمورة رأيت البزاز ينظر إلى الفرش ويحزر قيمته، والنجار إلى السقف، والبناء إلى الحيطان، والحائك إلى النسيج المخيط.
والمؤمن إذا رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر، وإن رأى مؤلماً ذكر العقاب، وإن سمع صوتاً فظيعاً ذكر نفخة الصور، وإن رأى الناس نياماً ذكر الموتى في القبور، وإن رأى لذة ذكر الجنة، فهمته متعلقة بما ثم، وذلك يشغله عن كل ما تم.
قال سفيان بن عيينة : الفكرةُ نورٌ يدخل القلب .
وقال قتادة : من تفكر في خلق نفسه ، علم أنه إنما خلق ولينتْ مفاصله .
وقال بعض الحكماء : أحْي قلبك بالمواعظ ، ونوّره بالفكر ، وموّته بالزهد ، وقوّه باليقين ، وذلله بالموت ، وقرّره بالفناء ، وبصّره فجائع الدنيا .

سئل أعرابي عن دليل على وجود الله فقال : سبحان الله ! سماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ، وبحارٌ ذاتُ أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير !!

قال ابن تيمية : النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه .

قال ابن القيم : أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ(إذا زلزلت والقارعة) لا أزيد عليهما وأتردد فيهما وأتفكر أحب إلى من أن أهذّ القرآن ليلتي هذًا .

وعن طاوس قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: يا روح الله، هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان منطقه ذكرًا ، وصمته فكرًا ، ونظره عبرة فإنه مثلي .

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك! فلو جلست مع الناس كان آنس لك, فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم, وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

قال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن علي –ورآه ساكتا متفكراً–: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بِشْر: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.

وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وقال السعدي : التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين .

رابعاً : ثمرات التفكر :

أولا : أن التفكر في الكون يورث الحكمة، ويحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله عز وجل.

فما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل، ولو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل، والفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

قال بعض السلف : دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وقال ابن عون : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات ، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ، ولا استنارت بمثل الفكرة .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نور تدخله إلى قلبك ، كما أنه يظهر على المرء في هيئته وسكونه ووقاره .

وقال وهب بن منبه : المؤمن إذا تفكر علته السكينة .

وقال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله :

زر المحكمة مرة في العام لتعرف فضل الله عليك في حسن الخُلق .

زر المستشفى مرة في الشهر لتعرف فضل الله عليك في الصحة والعافية .

زر الحديقة مرة في الأسبوع لتعرف فضل الله عليك في جمال الطبيعة .

زر المكتبة مرة في اليوم لتعرف فضل الله عليك في العقل .

زر ربك كل آن لتعرف فضله عليك في نعم الحياة .

قال الشاعر :

فوا عجباً كيف يعصي الإله * * * أم كيف يجحده جاحدُ

لله في كل تحريكة * * * وتسكينة أبداً شاهدُ

وفي كل شيء له آية * * * تدل على أنه واحدُ

وقال آخر :

تأَمَّلْ في رِيَاضِ الرّوضِ وانظر * * * إلَى آثارِ مَا صَنَعَ المليكُ

عُيُونٍ مِنْ لجينٍ شاخصاتٍ * * * بأحداقٍ كما الذَّهَب السَّبيك

عَلَى قَضِيبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِداتٍ * * * بأَنَّ اللهَ ليسَ لَهُ شَرِيك

ثانياً : أن التفكر في الكون يكشف عن عظمة الخالق في خلقه ,ويجعل المرء يقر بوحدانية الله تعالى , ويتواضع لعظمته , ويحاسب نفسه على أخطائها فيزداد إيماناً وصفاء.

سئل أعرابي عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير . والروث على الحمير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟. قال سبحانه (ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله) .

ثالثاً : يجدد الإيمان ويزيده .

قال ابن القيم : التفكر يكشف حقائق الأمور ، ويميز مراتبها في الخير والشر ، ومعرفة المفضول من الفاضل ، والتفكر يزيد الإيمان أكثر مما يزيده العمل .

رابعاً : أن التفكر من أعمال القلوب .

وقد قال ابن القيم : وهو من أفضل أعمال القلب وأنفعها له .

خامساً : التفكر طريق إلى التوبة والعمل .

وقال الحسن البصري ﷺ : التفكر يدعو إلى الخير والعمل به .

والتفكر مع العمل مظنة الاستجابة للدعاء وقبول العمل ، قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) إلى قوله تعالى (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ) الآية فهؤلاء ذكروا الله تعالى وتفكروا في مخلوقاته، وحملهم التفكر على الإيمان والعمل الصالح .

قال الشوكاني : والمعنى أنهم يتفكرون في بديع صنعهما وإتقانهما مع عظم أجرامهما ، فإن هذا الفكر إذا كان صادقاً ، أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه .

والتفكر مفتاح الرحمة ، قال سفيان بن عيينة : التفكر مفتاح الرحمة ألا ترى أن المرء يتفكر فيتوب .

ولذلك قال بعض السلف : تعود الطاعات إلى التفكر والاعتبار .

خامساً : مجالات التفكر :

أولاً : التفكر في القرآن العظيم :

وهو أعظم مجالات التفكر ، فالقران معجزة الإسلام الخالدة ، أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور .

قال تعالى (الر .كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

وهو معجز بلفظه ومعانيه ، لا تنقضي عجائبه للمتفكرين فيه ، قال تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

قال السعدي : قوله تعالى (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه .

ومن التفكر في القرآن التفكر في حججه وآياته وأحكامه الشرعية ، والتفكر في أمثاله التي ضربها الله لعباده ليتفكروا فيها ، قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) .

قال ابن كثير : أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المعنى المراد منها ،كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) .

وقال السعدي : أخبر تعالى أنه تعالى يضرب للناس الأمثال ، ويوضح لعباده الحلال والحرام ؛ لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها ، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ، ويبين له طريق الخير والشر ، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، ويزجره عن مساوئ الأخلاق ، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه .

ثانياً : التفكر في المخلوقات :

وهذا المجال من مجالات التفكر واسع النطاق ، يمتد إلى ملكوت السماوات والأرض ، وما سخر الله منها من كل شيء ، وقد جاءت آيات عديدة في القرآن العظيم تدعو إلى التفكر في السماوات والأرض وما بينهما ، قال تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

وقال تعالى (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

ثالثاً : التفكر في الدنيا والآخرة :

وهذا المجال أحد مجالات التفكر التي أمر الله – عز وجل – بها ، فالدنيا دار ممر وليست دار قرار .

قال تعالى : (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) .

قال ابن عباس : يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها) .

وقال قتادة : لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا .

وقال أيضاً : من تفكر في الدنيا والآخرة عرف فضل إحداهما على الأخرى ، وعرف أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء ، وأن الآخرة دار بقاء ثم دار جزاء) .

رابعاً : التفكر في الموت والبعث :

قال تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

قال ابن جرير : يقول الله تعالى: إن في قبض الله نفس النائم والميت وإرساله بعد، نفس هذا ترجع إلى جسمه، وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر وبياناً أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء ويميت من شاء إذا شاء .

وقال عند تفسير قوله تعالى (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) أي : أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون في خلق الله إياهم ، وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئاً ، ثم صرفهم أحوالاً وتارات ، حتى صاروا رجالاً ، فليعلموا أن الذي فعل ذلك قادر على أن يعيدهم بعد فنائهم خلقاً جديداً ، ثم يجازي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته .

خامساً : التفكر في المتقابلات :

خلق الله – تبارك وتعالى – في هذا الكون من المتقابلات والأضداد ما يدل على كمال قدرته وبديع صنعه ، فالليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسهل والوعر ، والماء العذب والماء المالح ، والذكر والأنثى ، آيات ودلالات وعبرة لمن يعتبر .

قال الله تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

ولقد من الله تعالى على الإنسان بأن خلق له زوجاً يسكن إليها كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) .

وبين تعالى تمام رحمته ولطفه بعباده ، بما جعل بين الزوجين من المودة والرحمة ، قال تعالى (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

ثم دعا عباده إلى التفكر في ذلك في ختام الآية ليعتبر ويتعظ من أحيا الله قلبه، قال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

قال ابن جرير : يقول تعالى : إن في فعله ذلك لعبرة وعظات لقوم يتذكرون في حجج الله وأدلته فيعلموا أنه الإله الذي لا يعجزه شيء أراده ولا يتعذر عليه فعل شيء شاءه .

سادساً : التفكر في مصارع الغابرين :

ومن مجالات التفكر العظيمة ، التفكر في مصارع الأمم الغابرة ، فيما نقل من أخبارهم في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، كيف كانوا ؟ وأين هم الآن ؟ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وإن الناظر إلى ديار الأمم الغابرة يرى ما وصلوا إليه من قوة وحضارة ، فبادوا وأصبحوا عبرة لمن بعدهم ، وقد أرشد القرآن العظيم إلى أن هذه الأمم الغابرة كان لهم شأن عظيم في بناء القصور، ونحت الجبال، وأعطاهم الله قوة في أجسامهم، فما أغنى عنهم كل ذلك لما كذبوا بآيات الله واستكبروا عن عبادته ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة .

وقد قص القرآن الكريم علينا قصص أولئك الأمم: عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وغيرهم، وقص علينا نبأ الذين استكبروا وطغوا وتجبروا: فرعون وهامان وقارون وغيرهم، بماذا قابلوا نعم الله عليهم وماذا كان مصيرهم؟.

وقد دعا النبي ﷺ إلى الاتعاظ بهؤلاء الأقوام الذين استحقوا مقت الله وغضبه ، وفي غزوة تبوك عند ما مر عليه السلام على ديار ثمود قال لأصحابه ﷺ (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم) .

وفي رواية (أن يصيبكم) .

قال ابن حجر : أي خشية أن يصيبكم ، ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعث على التفكر والاعتبار ، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض وإمهالهم مدة طويلة ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه ، وهو سبحانه مقلب القلوب ، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك .

سادساً : معوقات التفكر .

أولاً : الغفلة .

وهو من أعظم الأسباب المانعة من التفكر بآيات الله ومخلوقاته ، كما قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

قال ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية : يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده . مما خلقه في السماوات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفة في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات .

قال السعدي : فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله ، كان انتفاعه بالآيات أعظم ؛ لأن المنيب مقبل على ربه قد توجهت إرادته وهمته لربه ، ورجع إليه في كل أمر من أموره ، فصار قريباً من ربه ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته ، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكر وعبرة ، لا نظر غفلة غير نافعة .

ثانياً : الكبر .

وهو من أخطر الأدواء وأعظم الذنوب وسبب للمقت من علام الغيوب ، والمتكبرون لا ينتفعون بشيء من آيات الله ودلائل وحدانيته وقدرته .

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ).

قال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا .

وقال السعدي : سأصرفهم عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية والفهم لآيات الكتاب (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) أي : يتكبرون على عباد الله ، وعلى الحق ، وعلى من جاء به .

ثم ذكر المصنف – رحمه الله – حديث ((**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**)). وقد تقدم شرحه .

تمت

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء